COMMENTAIRE COMPOSÉ DE LITTÉRATURE ARABE

من فوق

- العام : قبل خمسة عشر عاماً، أضف عاماً أو أنقص عاماً إذا أحببت.
- الفصل : الشتاء
-الشهر: رمضان

تسلل سالم وجمعة إلى داخل مئذنة الجامع الكبير في دُبَي، دون أن يلحظهما خادم الجامع الذي كان مستلقياً في الرواق على أحد الأبسطة المتآكلة يغطّ في نوم عميق. أخذا يتسلقان بخفة سلالم المئذنة الضيّقة، بعد فترة جلسا يستريحان ، المئذنة طويلة ، بل لعلها أطول مئذنة في دبي ، واصلا التسلق ، لم يتوقفا حتّى خرجا من ظلمة السلالم إلى نور القبة وهما يلهثان, من قمّة تلك المئذنة أخذا يتفرّجان بحبور على المناظر المتعدّدة التي لفتت أنظارهما، ...
سالم صبي في الثانية عشرة من عمره ، يلبس ثوباً أبيض وطاقية مكتوب عليها "أنت عمري" ، نحيل يبدو قفصه الصدري بارزاً من ثوبه ، حتّى ضلوعه يمكن عدّها واحداً واحداً. جمعة صبي أسمر في الثالثة عشرة ، قصير وسمين ، ثوبه بنّي ولا توجد على طاقيته كتابة ، بل زركشة عادية . وضع سالم الكيس الذي كان يحمله على الأرضيّة وأخذ يستنشق الهواء بسرور...، أشار إلى تحت :

- من هنا نرى الناس والعالم وكل الأشياء .

جمعة بغبطة صبيانية :

- نعم ، ولا يرانا أحد.

يشير سالم إلى بعض السيارات التي كانت تمرّ بالقرب من حصن الفهيدي :

- انظر إلى تلك السيارات، إنّها تبدو كسيارات اللعب الصغيرة التي نشاهدها في واجهات المحلات التجارية.
- ماذا فعلت بسيارة اللعب التي سرقتها العام الماضي من ذلك البائع الهندي السمين؟
- عندما فرغت بطاريتها، أخذت أسحبها بحبل ثمّ تكسّرت بعد ذلك.

[...]

جلسا وألصقا ظهريهما بالحائط الصغير المستدير ، فتح سالم الكيس وأخرج علبة سمك سردين وبعض الخبز وفتّاحة حديديّة ، بدأ يفتح علبة السمك:

[...]

- لولا الجوع هل كنا نأكل هذه الأسماك الكريهة؟
- ولماذا لم تطلب من أمك أن تغرف لغدائك بعضاً من تلك الأسماك الشهية التي تعدّها لوجبة االإفطار؟
- هل جننت ... لو عرفت والدتي أنّني أفطر في رمضان لضربتني وطردتني من البيت.

أعطى سالم صديقه جمعة أربع سمكات صغيرة وأبقى لنفسه أربعاً أخرى وتقاسما رغيف الخبز وبدآ بالأكل.

يبتلع جمعة الخبز والسمك بصعوبة:

- هذا الخبز جافّ والاسماك شديدة الملوحة، من أين نشرب ؟
- عندما ننزل سنشرب من حنفيات الوضوء في الجامع.

- لو كنّا بحّارة سفن لما اضطررنا للصيام، لأنّهم دائماً مسافرون والمسافر كما يقول إمام مسجدنا يقدر أن يفطر في رمضان.

بدأت الريح الباردة بالاشتداد، انتفض جسد سالم الضعيف، وضع علبة السردين الفارغة وبقايا الخبز في الكيس وحمله وأشار إلى جمعة لكي ينزل. النزول أسهل من الصعود, استراحا وسط السلّم الدائري الطويل. لما وصلا إلى الباب الصغير وشاهدا النور المنبعث منه، أحسّا بالارتياح. حين همّا بالخروج من باب قاعدة المئذنة، شاهدا في انتظارهما خادم الجامع بلحيته الكبيرة وعيونه الواسعة الغاضبة وثوبه الأسود وعصا غليظة و طويلة في يده اليمنى.

عن محمّد المرّ
مجموعة "الفرصة الأخيرة"، 1987